مقالة

الوطنيّة جمرة خبيثة وفتنة قاتلة

مقدمة

ربما لم تشهد الأمة الإسلامية عبر تاريخها الطويل فتنة أعظم وأشد من فتنة الوطنية التي عاشتها خلال المائة سنة الأخيرة. حيث مرّت الأمة بمراحل عديدة من القوة والضعف واتساع الرقعة الجغرافية وتآكلها، فامتد سلطان الإسلام إلى الصين شرقا وإلى الأندلس غربا، ولم يقدر أعداء الإسلام على مر العصور رغم الامتداد الجغرافي الشاسع واختلاف اللغات والمذاهب على زرع فتنة تُفجّر وحدة الأمّة من الداخل أو تمزقها إلى أشلاء متناثرة كما صار حالها اليوم، بل كان قضم أجزاء من الدولة وإنهاء نفوذها في مناطق معيّنة من خلال الحروب المستعرة هو أقصى ما يمكن أن يصل إليه أعداء الإسلام، وكان شق مصر لعصا المسلمين بالدولة الفاطمية حالة طارئة وحدثا استثنائيا في التاريخ الإسلامي، استوجب حلا عسكريا عاجلا برز خلاله القائد الفذ صلاح الدين الأيوبي كبطل منقذ، فقضى على الدولة الفاطمية وضم مصر إلى الخلافة، ثم حرّك جيشه إلى فلسطين فكان التحرير الكامل الذي ردّ كيد الصليبيين وأعلى راية الدّين ووحد شمل المسلمين عملا بقوله سبحانه: ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾.

اليوم، وقد قُطّعت أوصال الأمّة وتمزّق جسدها وتعمّقت جراحها حتى غدت عاجزة عن إيقاف نزيف دمائها المتدفقة في كل مكان، وخصوصا في غزة ولبنان والسودان، وقد فقدت الحصن والدرع والشوكة والسلطان، فقد بات حريّا بكل من افتتن بالوطنية فكرة وانتماء وولاء أن ينبذ هذه الجمرة الخبيثة ويتبرأ منها، ويدرك خطرها على أمّة يُراد لها الإبادة والفناء، وأن يُوطّن نفسه على الإسلام عقيدة وأحكاما ومنهج حياة، حتى يحقق معنى العبودية لله سبحانه الذي أوجب على المسلمين الاعتصام والوحدة ونهاهم عن الانقسام والفرقة. لقوله تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا**﴾.

لما كَسَع غلامٌ من المهاجرين غلاماً من الأنصار في غزاة بني المصطلق، واستغاث الأول: يا لَلْمهاجرين، ونادى الآخر: يا لَلأنصار، سمِع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**مَا بَالُ دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ؟**»، فحكوا له ما جرى، فقال ﷺ: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**». وفي رواية ابن جُريج: «**دَعُوهَا؛ فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ**...».

في معنى الوطن

الوطنُ في اللغة مِنْ وَطَنَ فلانٌ بالمكانِ، أي أقام به، سكَنه وألِفه واتَّخذه وطَناً.

والوَطَنُ (في معجم المعاني الجامع): هو مكانُ إِقامةِ الإِنسان وَمقَرُّه، وإليه انتماؤه، وُلد به أَو لم يولد.

ولذلك، فالمعنى اللغوي للوطن، هو ما سكنه الإنسان وألفه وأقام به سواء وُلد به أم لم يولد. ومن البديهي القول إن وطن المسلم لا يقف عند الحدود الوهمية المصطنعة التي رسمها الاستعمار مطلع القرن العشرين إثر هدمه لدولة الخلافة، أي بعد أربعة عشر قرنا من نزول الوحي، بل لقد كان المسلم عبر التاريخ يتنقل بين بلاد الإسلام مترامية الأطراف وهو يشعر أنه في وطنه وبين إخوته، له ما لهم وعليه ما عليهم.

بل إنّ هجرة النبي الكريم ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم وتركهم بيوتهم وأرزاقهم وقومهم والأرض التي ولدوا فيها، واتخاذهم المدينة المنورة موطناً جديداً لهم ونقطة ارتكاز لدعوتهم، يشير إلى أن الوطن في الإسلام مرتبط بالعقيدة، وأن مفهوم

الأمة في الإسلام يرتبط بالاجتماع عليه وعلى قيمه لا الأعراق القومية، فـ"لو كان الولاء للأرض لما ترك النبي مكة، ولو كان الولاء للقبيلة لما قاتل قريشاً، ولو كان للعائلة لما تبرأ من أبي لهب، ولكنها العقيدة أغلى من التراب والدم". ورحم الله القائل:

ولست أدري سوى الإسلام لي وطناً *** الشام فيه ووادي النيل سيان

وحيثما ذكر اسم الله في بلد *** عددت ذاك الحمى من صلب أوطاني

بالشام أهلي وبغداد الهوى *** وأنا بالرقمتين وبالفسطاط جيراني

ولي بطيبة أوطار مجنحة *** تسمو بروحي فوق العالم الفاني

إذا اشتكى مسلم في الهند أرّقني *** وإن بكى مسلم في الصين أبكاني

دنيا بناها لنا الهادي فأحكمها *** أكرم بأحمد من هادٍ ومن باني

بل لقد امتد سلطان الإسلام وتجاوز بلاد العرب ليصل إلى بلاد تركية وكردية وفارسية وبربرية وأعجمية، فكان الإسلام عامل قوة يصهر جميع الأعراق والأطياف والأجناس في بوتقة العقيدة والدين تحت راية التوحيد، في موطن واحد، سمّي في الفقه دار الإسلام، حدوده الأمان والسلطان مجتمعان، حتى سطع نجم الحضارة الإسلامية في الأندلس، التي ظن كثيرون بأن غياب الطوق العربي هو الذي سهل سقوطها بأيدي أعدائها، ولكن تأتي أحداث غزة اليوم لتؤكد أن وجود الطوق العربي ليس عامل قوة إذا غاب الإسلام وذروة سنامه.

الوطنية، ثمرة مسمومة زرعها الاستعمار

إن الوطنية فكرة دخيلة على المسلمين، لم تجد لها طريقا في كتب الفقه الإسلامي على مر التاريخ، ولا أصل لها في شرع الله سبحانه، إنما هي منتوج غربي استعماري قامت الدول الصليبية بتصديره إلى المسلمين لكي يتسنى لها تجزئة بلادهم وتفتيتها، عقب هدم دولتهم وضرب وحدتهم، لأنهم ظلوا طوال قرون حالة مستعصية وظلت الأمة كيانا واحدا تعجز الحواجز اللغوية والعرقية عن تفتيته. وهكذا فالوطنية، هي فتنة معاضدة لفتنة القومية التي زرعها الاستعمار في بلاد الإسلام بين الفرس والترك والعرب، وهي ثمرة مسمومة تنضج في بستان الاستعمار وتتغذى بماء الحقد الصليبي الدفين، تُخفي بين أوراقها عبث الهوية وخراب الثقافة ودمار الأوطان، باسم التحرر الوطني.

فصار المسلم يضحي بنفسه من أجل "الوطنية"، أي من أجل تكريس واقع التجزئة، وصار "الفكر الوطني" و"المشروع الوطني" عائقا أمام وحدة المسلمين، وصارت الأخوة في "التراب الوطني" مقدمة على الأخوة في الله، وصار أحفاد الصحابة والفاتحين أجانب وربما إرهابيين يستهدفون وحدة الوطن، أما أحفاد أبي لهب ومسيلمة الكذاب فصاروا شركاء في الوحدة الوطنية، بل صار الدفاع عن التراب الوطني واجبا وطنيا مقدسا، أزهقت من أجله أرواح ملايين المسلمين طوال العقود الماضية، وسجن من أجله آلاف العلماء والدعاة، تحقيقا لمآرب الكافر المستعمر الذي صار يتسلى بلعبة إراقة دماء المسلمين هنا وهناك في سبيل تحقيق السيادة الوطنية المزعومة على رقعة صغيرة من الأرض، قد يتدخل مجددا ليقوم بتجزئتها وتغيير اللاعبين داخلها بدعوى المصلحة الوطنية.

بل لقد صارت تلك العزلة السياسية والحالة العدائية والنزعة الانفصالية المارقة على مفهوم الأمة وكيانها المعنوي واجبا وطنيا مقدسا، وصلت في أحيان عديدة إلى التبرؤ من التاريخ الإسلامي والقفز فوقه واشتراط إعلان العداء للخلافة كشرط

لدخول مضمار الحياة السياسية والمشاركة في تشييد البناء الوطني المستقل، ما يسهل على الكافر المستعمر انتداب العملاء والخونة وتوظيفهم كأداة لإثارة الفتن والحروب والقلاقل أو الحفاظ على واقع التقسيم كحد أدنى، بل صار السهر على حراسة الحدود الاستعمارية جهادا في سبيل الوطن بحسب العقيدة العسكرية لجيوش الدول الوطنية منذ إنشائها، عندها ضاعت بوصلة الجهاد وانحرفت عن مسارها الطبيعي.

لقد كان واضحا لكل ذي لب وبصيرة أن المقصود من فكرة الوطنية حصر الولاء والانتماء في الأرض دون الدين، وحصر التقديس لأعلام ورايات الاستعمار دون راية التوحيد (راية العقاب)، بل المقصود من وراء ذلك كله تحريم كل دعوة للوحدة على أساس العقيدة والدين واعتبارها تهديدا للأمن القومي والسلم المجتمعي والسيادة الوطنية، لكونها تستهدف هيبة الدولة الوطنية "العتيدة" بالتآمر عليها مع الخارج ومحاولة تبديل هيأتها، وهو ما يستوجب بحسب العديد من دساتير هذه الدول الوطنية عقوبة الإعدام انتصارا لتلك الخرق والأعلام، وهي الدساتير نفسها التي تقر المعاهدات العسكرية مع الدول المحاربة وتضع جنودها على ذمة القوى الاستعمارية الكبرى، وتفتح أبوابها أمام سفرائها ومخابراتها وكل قذاراتها، مقابل تعطيل جهاد جيوش الأمة لتحرير فلسطين.

ذلك أن فكرة الوطنية، هي فكرة علمانية في أصلها ومنشئها، حيث ظهرت الدولة الوطنية مع ظهور المجتمع الوستفالي في أوروبا النصرانية، وكان أول من نادى بالوطنية في البلاد العربية هو النصراني الماروني بطرس البستاني، الذي أصدر صحيفة جعل شعارها "حب الوطن من الإيمان" وهو شعار لم يكن المسلمون يفهمونه حتى ذلك الوقت على طريقة الذين ينادون صراحة بأن الولاء الديني لا يصلح أن يكون أساسا للحياة، فضلا على أن يكون أساسا لاتخاذ قرار السلم أو الحرب.

أما من يقاتل في سبيل الوطن والعَلَم الوطني دون إعلاء راية لا إله إلا الله، فهو شهيد في عرف دعاة الوطنية، خلافا لقوله ﷺ: «**وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبِيَّةٍ، وَيَنْصُرُ عَصَبِيَّةً، وَيَدْعُو إِلَى عَصَبِيَّةٍ فَقُتِلَ فَقِتْلَتُهُ جَاهِلِيَّةٌ**».

وهكذا أصبح أبناء كل وطن يقاتلون غيرهم ويستبيحون دمه إذا كان ذلك في سبيل وطنهم، هذا إن سلموا من فتنة الطائفية والحروب الأهلية، بل أصبح من المسلمات البديهية عند المسلمين وجيوشهم مشروعية القتال في سبيل الوطن، وعلى ذلك تربت الناشئة التي فُرض عليها يوميّا تحيّة العلم وترديد النشيد الوطني. عن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ**». فقيل: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: «**إِنَّهُ كَانَ حَرِيصاً عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ**». رواه البخاري ومسلم.

اللافت للنظر في مسألة نشأة الدولة الوطنية في بلاد العرب، هو تزامن زرع هذه الكيانات القطرية العلمانية مع مؤامرة تثبيت كيان يهود في قلب البلاد الإسلامية، لتصبح كل هذه الكيانات الكرتونية والأنظمة الوظيفية مستوطنات استعمارية وحدائق خلفية للدول النصرانية الصليبية، مع أفضلية منقطعة النظير لكيان يهود بوصفه القاعدة العسكرية المتقدمة للغرب في بلاد الإسلام، والضامن الأساسي لتكريس واقع الفرقة والتجزئة والحيلولة دون امتزاج الطاقة العربية بالطاقة الإسلامية ودون الوحدة على أساس الإسلام، وهو ما أشار إليه المجرم نتنياهو مباشرة بعد ثورات الربيع العربي، حيث أشار إلى صغر خارطة الكيان بين الدول المحيطة به في المنطقة، ثم أضاف أن كل هؤلاء من الشرق إلى الغرب يحلمون بإقامة خلافة إسلامية، مستجديا دعم دول الغرب بزعامة أمريكا في مواجهة هذا الخطر الذي يتهدد الغرب برمته.

الوطنية فتنة عظيمة وسلاح قاتل

إن الغرب الصليبي الذي فرض واقع الاستعمار بالحديد والنار ونشر في بلادنا الخراب والدمار هو نفسه من زرع وهم الاستقلال وثبت مشروع الدولة الوطنية كجزء من منظومة استيطانية أريد لكيان يهود أن يكون رأس الحربة فيها، وللأنظمة العربية الملتحفة برداء الوطنية أن تكون جدار صد للأمة ومانعا فعليا للجهاد ضد المحتل، وما يحصل اليوم في غزة ولبنان ومن قبل في العراق وأفغانستان هو خير دليل ومثال، بل حجة إضافية لاعتبار الدولة الوطنية مشروع انتحار سياسي للأمة وتقتيل لأبنائها على مراحل.

ولذلك فكيان يهود والكيانات المتصهينة المحيطة به والحامية له، هي جزء من مشروع استعماري خطير خرج من مشكاة واحدة، هو مؤتمر كامبل الذي انبثقت عن مخرجاته اتفاقية سايكس بيكو ووعد بلفور وغيرهما من آليات الحفاظ على التفوق الاستعماري وأدوات التأسيس الثقافي المستقل للكيانات القُطرية الوطنيّة، التي لم تستطع أن تخفي تجانسها مع كيان يهود في كثير من الأمور الجوهرية، سواء أعلنت تطبيعها أم أخفته إلى حين.

فمسخ الهوية وتزييف التاريخ وطمس الحقائق وتقديس العِلْم وضرب العقيدة ونشر الميوعة وإشاعة الفاحشة وتجريم الدعوة إلى الله وشيطنة أصحابها والصد عن سبيل الله وإشهار سيف محاربة الإرهاب وحتى صناعته والحرص على استعادة هيبة الدولة الوطنية وعلى موالاة أمريكا والتحالف معها مقابل التنكيل بالمسلمين وتقتيلهم وتعطيل طاقاتهم وكبح جماحهم ونهب ثرواتهم ومنع وحدتهم، هي جميعها أمور تتشارك فيها الأنظمة العميلة وتتجانس مع كيان يهود، بل لا نبالغ إن قلنا إن بعضها يفوق هذا الكيان من حيث الجرأة على دين الله وعلى حرمة الدم المسلم، ولنا في نظام الطاغية بشار الذي قتل مليوناً من أبناء الشام وهجر أكثر من 13 مليون نازح حول العالم خير دليل ومثال.

يقول أحد العلمانيين ويدعى فرح أنطوان: "إنّ العالم قد تغيّر، فالدولة الحديثة لم تعد قائمة على الدين، بل على أمرين: الوحدة الوطنية وتقنيات العلم الحديث".

وهكذا، يتبين أن الوطنية بمفهوم أصحابها هي طعنات غرست في جسد الأمة لمنع وحدتها ونهضتها على أساس الإسلام من جديد، وأنها السلاح المباشر الموجه إلينا لقتل كل رغبة في التغيير على أساس الإسلام. وبهذا العدد من الطعنات والوطنيات، صار المسلم ينظر لأخيه المسلم وهو يحترق حيا عبر البث المباشر دون أن يتحرك لإنقاذه، وصارت الدولة الوطنية تضع كل القيود والأغلال على الجيوش لمنع تحركها نحو نصرة المستضعفين في الأرض المباركة وتحرير المسجد الأقصى من رجس يهود، إذ لا حراك ولا تحرك ولا نصرة إلا حين يمس التراب الوطني وتُنتهك السيادة الوطنية. وبعبارة أخرى، فقد أريد للشعوب المخدرة بأفيون الوطنية، أن تبقى كالخرفان تنتظر دورها في الذبح، تماما كما أريد للأنظمة الوطنية أن تكون مسامير صدئة تتناوب على تثبيت الاحتلال وكل سرديات وروايات الاحتلال، وحاشاها أن تفكر في النزال والقتال، لأن القادة المخصيّين منشغلون بالانتخابات الوطنية والحكومات الوطنية والمصالح الوطنية.

الوطنية إذن هي فكرة خبيثة وعصبية جاهلية مقيتة ورابطة منحطة تستأصل دعاة الوحدة بتهم التمرد على واقع "السيادة الوطنية"، وتجعل الأغبياء سياسيا مجرد ضحايا لإعلام متصهين يروج لمادة دعائية مغشوشة ومخدرة تُغلّف بحب الوطن وتشحن الناس وطنيّا نحو نضال وهمي يُكرس واقع التقسيم والتجزئة والتفتيت، وهي أيضا فكرة تتناقض مع مفاهيم أساسية عند المسلمين وتعطلها، في مقدمتها مفهوم الأمة نفسه، تليها مفاهيم النهضة والأمن القومي وسياسة الردع والدفاع المشترك المرتبطة كلها بذروة سنام الإسلام: الجهاد في سبيل الله.

الوطنية ببساطة هي فعل استعماري خالص، يجعل من الأمة مفعولا به، يفعل بها أعداؤها ما يشاؤون متى يشاؤون وكيفما يشاؤون، وبراءة اختراعها تعود إلى الكافر المستعمر الذي اخترع لنا أيضا فكرة القومية، وجميعها معاول هدم للأمة الإسلامية. فهل ينتظر عاقل أن تصبح معاول بناء وتحرير؟!

أما دولتها، فهي أداة غربية تجعل الأمة منكشفة الظهر أمام أعدائها، تفصلها مسافات ضوئية عن التصنيع والريادة والقيادة وعن مجرد اتخاذ قرار السلم أو الحرب، بل هي آلية استنزاف وتنكيل وتعطيل واضطهاد وسوء رعاية وعجز عن نصرة المظلوم يصل إلى حد الخيانة العظمى. وأما إنجازاتها، فهي صفر حضاري محاط بأسلاك شائكة بل بجدران إسمنتية أو فولاذية تعززها منظومة مراقبة إلكترونية للحدود الوهمية موجهة بقليل من الذكاء الصناعي المستورد وكثير من الغباء السياسي المحلي.

التحرير يبدأ من التحرر من أغلال الوطنية

هذا الواقع الأليم والغربة المريرة والحالة الغثائية الطارئة التي صرنا نعيشها في بلاد الإسلام هي أمر مرفوض شرعا وإثم عظيم وجب على الأمة التوبة منه والتكفير عنه وتبرئة ذمتها بالسعي مع الساعين إلى التغيير الجذري على أساس الإسلام وبناء دولة الإسلام، لأن قضية تحرير فلسطين بالجهاد هي قضية الأمة برمتها وعلى رأسها عساكرها وجيوشها، وليست قضية حزبية ولا وطنية وإن قادها في الأمة حزب. فهذه هي فريضة الساعة وهؤلاء هم مناط الحكم. قال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾.

ومع كل ما فرضته الوطنيات من قيود وأغلال على المسلمين، فإن الأمة ولّادة، وإن العقيدة الإسلامية كفيلة بصناعة قائد عسكري من طراز صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، الذي لم يمنعه أصله الكردي ووطنه الشامي من السير في الطريق الشرعي نحو القدس، بل كان إيمانه بأن الأوطان تتحرر تحت راية القرآن دافعا له، ليتحرك بالجيش من سوريا إلى مصر ولم يذهب على فلسطين بالرغم من أنها أقرب إليه من مصر، ولكن لما كانت مصر هي التي شقت عصا المسلمين ما أدى إلى إضعافهم كما هو حاصل اليوم من الدويلات القائمة في بلاد المسلمين، كان لا بد أن يمر بها الجيش ليقضي على الدولة الفاطمية قبل أن يذهب إلى الأرض المباركة، وهذا ما حدث، إذ إنه قضى عليها وضم مصر إلى الخلافة، ثم تحرك الجيش إلى فلسطين فكان التحرير، وهذا ما يجب أن يكون، تحقيقا لوعد الآخرة.

قال تعالى: ﴿**إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً**﴾.

كتبه للمكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير

المهندس وسام الأطرش – ولاية تونس